الفصل الأول
مقدمة تاريخية

ف١

لا تكاد توجد آثار لأي لون من الحياة الفكرية في الأندلس خلال السنوات الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي لإسبانيا على يد طارق وموسى؛ بل إن الشعب الإسباني الذي دخل في طاعة المسلمين - نتيجة لهذا الفتح - لم يخلّف لنا آثارًا تدل على حياته الفكرية طوال عصر الولاة[1] (٧١٠-٧٥٥م).

ذلك أن الظروف التي أحاطت به لم تكن مواتية لشئون الدرس والفكر، فقد شُغل الفاتحون بما وقع بين بعضهم وبعض من مخاصمات وحروب، وثارت العداوات بين قبيلة وقبيلة، وبين البربر والعرب، وبين القيسية واليمنية، وبين الشامية والمدنية. ثم إنَّ الفاتحين - جميعًا - كانوا من المحاربين؛ وهذا وحده يكفي لتعليل انصرافهم عن الآداب وشئون الفكر.

ولم يكن أهل البلاد - الذين دخلوا في الإسلام، وارتبطوا مع الفاتحين بروابط المصاهرة - في حاجة أول الأمر إلى شيء ذي بال من الثقافة الإسلامية؛ لأن الدخول في الإسلام لم يكن يتطلب منهم إلا النطق بالشهادتين (وحريٌّ بنا ألا ننسى - في تعليل نشاط المصاهرة بين الفاتحين وأهل البلاد - أن المسلمين دخلوا إسبانيا جيوشًا منظمة، ولم يدخلوها دخول البرابرة أفواجًا وقبائل بنسائها وأطفالها، ومن ثَمَّ لم يكن لهم بدٌّ من اتخاذ النساء من أهل البلاد، ومن ثَمَّ أصبح التزاوج من الجانبين أمرًا لا مفر منه). ولا بد أن أولئك الإسبان - الذين دخلوا الإسلام - لم يندموا على فراقهم دينهم الأول وانتقالهم إلى العقيدة الجديدة، فقد تحسنت ظروف حياتهم من الناحيتين القانونية والاجتماعية:

إذ انتقلوا من الرق إلى الحرية، ولما كان المسلم الحر يكاد يكون معفيًّ من الضرائب والجبايات في العرف الإسلامي، فقد كان هذا وحده عاملاً على سرعة

تحول أهل الجزيرة إلى الإسلام.

وقد كان القرآن في الأندلس - كما كان في غيره من البلاد الإسلامية - المصدر الوحيد للتشريع، ولم تمسَّ الحاجة إلى اللجوء إلى الاستعانة بسنن الرسول إلا بعد أن احتكَّ أهل الإسلام بنُظُم الشعوب المفتوحة في المشرق والمغرب، ووجدوا أنفسهم - نتيجة لهذا الاحتكاك - أمام مشاكل تشريعية وقانونية شديدة التعقيد. ونشأت عن تلك الاستعانةِ بالسنة في حل هذه المشاكل المذاهبُ الفقهيةُ المختلفة.

وقد دخل عبد الرحمن بن معاوية (١٣٨/٧٥٥ - ١٧٢/٧٨٨) الأندلس في لحظة أشرف أمر الإسلام فيها على الانتثار والضياع، وكان هو نفسه من القلائل الذين أفلتوا من أيدي العباسيين الذين انتزعوا الخلافة من الأمويين وتعقبوهم بالقتل، فقُدِّر له - وهو الناجي بنفسه من الحتوف - أن يستنقذ الإسلام من الزوال من الأندلس: فقد اشتدت حروب العرب ومنازعاتهم بين بعضهم وبعض، وحَمِي نزاع الرؤساء على الولاية؛ حتى حازها منهم أربعة وعشرون واليًا في خمس وأربعين سنة. وبدخول عبد الرحمن لوقام دولته الأموية] أتيحت للإسبان الظروف المواتية للاتصال بالثقافة الإسلامية المشرقية اتصالاً منتظمًا.

وليس إلى الشك سبيل في أن أهل البلاد قد اهتموا بتعلم اللغة العربية، لغة الدولة والدين في الإسلام، ولا بد كذلك أن نفرًا منهم ذهب إلى مكة حاجًّا وعرف - عن طريق الحج - المراكز المشرقية؛ ولكن أولئك الوافدين من الأندلسيين لا يمكن أن يكونوا قد أفادوا كثيرًا من زياراتهم لهذه المراكز؛ لأن الحركة الأدبية كانت إذ ذاك في أوائل أمرها فيها.

وكان الأمير عبد الرحمن يقول الشعر بين الحين والحين، ولدينا كذلك أسماء شعراء عاشوا في بلاطه، منهم أبو المخشى اعاصم بن زيد بن حنظلة

التميمي، الذي بكى في أبيات مؤثرة بصره الذي أمر بإطفاء نوره أمير أموي عقابًا للشاعر لعلى ميله لأخي الأمير. ويذكر لنا المؤرخون - من بين الثورات والمؤامرات الكثيرة التي تجرد عبد الرحمن للقضاء عليها بيد حازمة - أخبارَ فتنة قام بها بربر الأندلس يقودهم معلمُ صبيان يسمى شقيًا، جمع بين الحماس الديني والشعبذة، وزعم أنه ينتسب إلى علي وفاطمة، فكأنه ردد في جوانب إسبانيا صدى الخلاف الكبير الذي صدع الإسلام من أول الأمر صدعًا عميقًا، وهو الخلاف حول الخلافة، فقد تحزب نفر كبير من المسلمين لأبناء فاطمة بنت الرسول، فنشأت عن ذلك طائفة الشيعة السياسية الدينية.

وكان من الطبيعي أن يكون تصادم هذه الآراء السياسية والدينية مجديًا على الثقافة، وأن يكون باعثًا للمسلمين على تعرف الإسلام الذي يدينون به وتعمقه. ومن هنا لم تلبث المذاهب الفقهية أن ظهرت بين المسلمين لواتبع كلٌ واحد منها نفرٌ منهم. وقد كان أهل الأندلس أول الأمر أوزاعية ثم تحولوا إلى مذهب مالك، وقد حمله إليهم شبطون لبن عبد الله[2]، أو الغازي بن قيس - الذي يؤكد ابن القوطية أنه أدخل «الموطأ» إلى الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل[3] - أو علي يد نفر من الفقهاء، وهو الأقرب إلى الاحتمال.

وقد جرى الأمير هشام بن عبد الرحمن (١٧٢/٧٨٨ - ١٨٠/٧٩٦) على اختيار قضاته وأصحاب الوظائف الدينية في دولته من بين فقهاء المالكيين، فكانت النتيجة أن انتشر هذا المذهب وثبتت قدمه في الأندلس. وسنرى في سياق هذا التاريخ الأثر الحاسم الذي كان لمذهب مالك على تطور الثقافة في الأندلس. بسبب اتساع مدى انتشاره المستمر، وما اتصف به من عداء لكل تجديد، مما أثار الفتن والقلاقل: أمام «فتنة النصارى» في قرطبة، و«وقعة الحفرة» في طليطلة، و«هَيْج الربض»[4] المروع الذي اضطر الحكم بن هشام الأول المعروف بالربضي (١٨٠/٧٩٦

- ٨٢١/٢٠٦) إلى القضاء عليه بإغراقه في الدماء، ما هذه كلها إلا نتائج؛ لتشدد فقهاء المالكية وعنادهم: فلم يكن الحكم هذا زنديقًا ولا خارجًا على الدين، ولكن الفقهاء سخطوا عليه إذ لم يعجبهم خلقه - وكان يغلب عليه الاستهتار والخفة - ولم يرضهم منه إقباله على الصيد والنبيذ، وأنكروا منه أنه لم يطلق يدهم في الأمور كما كانوا يشتهون. وكان الحكم شاعرًا، وكذلك كان غَريب ابن عبد الله[٥] رأس ثوار طليطلة يقول الشعر. ورغم ذلك كله فإن أثر الحكم في تطور الثقافة العربية الأندلسية لا يعدل أثر خليفته عبد الرحمن الثاني الأوسط (٨٢١/٢٠٦ - ٨٥٢/٢٣٨).

كان عبد الرحمن الأوسط محبًا للشعر، وكان ضعيف الشخصية: ترك عنانه بيد الفقيه يحيى بْن يحيى، وطروب أحب نسائه - أي نساء عبد الرحمن - إليه، وزرياب المغني. وكان زرياب رجلاً فذًا، فكان إقباله على بلاط عبد الرحمن الأوسط إيذانًا بتحول هذا البلاط لمن خشونته] إلى ترف قصور الحكام وأصحاب السلطان في المشرق. ذلك أن زريابًا لم يستهوِ أفئدة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب؛ بل بآدابه الاجتماعية، وملابسه، وطريقته في إرسال شعره، وولائمه البديعة التي كان يتفنن في ترتيبها، فأخذ الناس عنه ذلك كله، وأصبح ذوقه مقياس الذوق لأهل قرطبة، وأصبحت ملابسه النموذج الذي يحتذيه القرطبيون في إعداد ملابسهم[٦].

ومن ذلك الحين اجتهد حكام الأندلس في أن يكون لقصورهم مجد أدبي يحاكي ما كان لقصور خلفاء المشرق، فاهتموا برعاية الآداب والعلوم والفنون؛ حتى تصل قرطبة إلى مستوى يضاهي ما وصلت إليه دمشق وبغداد، ومن هنا تألق في بلاط عبد الرحمن الأوسط شعراء مثل يحيى بن الحكم بن غزال، الذي وصفه ابن حيان بأنه «حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها»، والذي كان عبد الرحمن

يندبه ليسفر بينه وبين غيره من الملوك[٧]، فكان يقوم بهذه السفارات وينشئ الأشعار متغزلاً فيمن يلقى من النساء، بل لقد أنشد الغزال أهل بغداد بضعة أبيات من شعره، وزعم أنها لأبي نواس فلم يشك الناس في أنها للحسن بن هانئ[٨]. ولمن شعراء بلاط عبد الرحمن الأوسط تمّام بن علقمة، الذي أنشأ أرجوزة طويلة نظم فيها تاريخ افتتاح المسلمين للأندلس[٩]، وحسانة التميمية بنت الشاعر أبي الحسين[١٠](*)

ونبغ كذلك فقهاء كبار ذوو علم واسع، مثل: عبد الملك بن حبيب وابن الماجشون، وأصبغ بن الفرج، ومحمد بن مُزَيْن - وكلهم مالكيون[١١].

وفي ذلك الحين كان عنصر المستعربين على وشك أن يتلاشى ويختفي في العنصر العربي، وهذا هو أقل ما نخرج به من عبارات التعجب والاستنكار التي سجلها «آلبرو القرطبي» في كتاباته، وهي عبارات معروفة ذائعة، صور لنا فيها شُبَّان النصارى من أهل بلده متضلعين في لغة العرب وشعرهم، مفضلين ذلك على النذر اليسير من العلم والأدب الذي كان قد بقي إلى أيامهم من العصر الزاهر للآداب اللاتينية في إسبانيا، كما تتجلى في كتابات إيزودور الإشبيلي، ولم يبقَ في أذهان الناس من هذه الآداب اللاتينية بعد أيام يولوجيوس وآلبرو القرطبيين إلا معالم قليلة غير واضحة، هي التي تسمى بآداب المستعربين.

وقد ضاع أدب المستعربين هذا كله على وجه التقريب، ولم يبقَ لنا منه إلا نماذج قليلة جدًّا، كتلك الأبيات التي نظمها الأسقف بنْجِنسْيُس[١٢] ليقدِّم بها كتابٌ من تأليفه إلى الأسقف عبد الملك، ومثل «تقويم الأسقف ريكيموندو».

وعبرت بالإمارة الأموية، بعد ذلك، أيامٌ عصيبة: ذلك أن الأمير محمد بن عبد

(*) أسقط المؤلف الفقرة الواردة بين الحاصرتين من الطبعة الثانية من كتابه.

الرحمن (٨٥٢/٢٣٨ - ٨٨٦/٢٧٣) - وكان أنانيًا بخيلاً[١٣] - استعان بالفقهاء، واستطاع أن يرهب الثائرين من رعاياه من النصارى ويخضعهم لسلطانه. أما المسلمون من الإسبان فقد كان من بينهم نفر من الشيوخ والرؤساء لم يذعنوا بالطاعة لسلطان أمير قرطبة: من أمثال بني قسي سادة أرغون، وعبد الرحمن بن مروان الجُلَيْقي المنتزي في ماردة وبطليوس، وعمر بن حفصون الذي تولى قيادة المستعربين في جنوب الأندلس من معقله حصن بُبَشْتُرْ في ناحية رُنْدة، وأولئك كلهم كانوا خارجين على سلطان إمارة قرطبة؛ فلجأ الأمير محمد إلى شيوخ قبائل العرب ورؤسائهم يستعين بهم على محاربة أولئك الخارجين على سلطانه، وكان من الطبيعي أن يحاول أولئك العرب استغلال هذه الفرصة، فمكنوا لأنفسهم في نواحيهم، وانتزوا هم الآخرون بها، وأنشئوا فيها سلطانًا مناهضًا لسلطان الأمير. واشتد النزاع بين هذه الطوائف من عرب الأندلس وبين الإمارة القرطبية، وطال هذا النزاع واشتد أمره؛ حتى كاد يقضي على إمارة قرطبة، خاصة في أيام الأمير عبد الله (٨٨٨/٢٧٥ - ٩١٢/٣٠٠).

وشاع بين الناس الميل إلى الشعر الجميل، وشاركهم فيه الأمراء أنفسهم [مثل الأمير عبد الله][١٤]، وظهر شعراء بلاط كثيرون لم يفوزوا من إعجاب جمهور الناس بنصيب كبير، مثل القلفاط [محمد بن يحيى] وعبيديس [بن مجمود][١٥]، وابن عبد ربه[١٦]، وغيرهم. وظهر كذلك رجال يمثلون الفروسية العربية بأكمل معانيها، مثل سعيد بن جودي[١٧] المقدام الذي قاد جماعات العرب في صراعها مع عمر بن حفصون، وكان ينشر الأشعار متغنيًا بحبه الميئوس منه لجيجان جارية الأمير عبد الله ومغنيته.

ولقد بلغ من غرام أهل الأندلس بالشعر في ذلك الحين أن ظهر بينهم فنٌّ شعريٌّ جديدٌ أقبل الناس عليه فيما بعد إقبالاً عظيمًا، هو فن الزجل والموشحة الذي

ابتكره مقدَّم بن معافى القبري الضرير الذي توفي قبل سنة ٣٠٠/٩١٢، ويصاغ على نظام جديد للقوافي والأوزان ونسق جديد كذلك للأبيات.

وكلٌّ من الموشحة والزجل يختلف اختلافًا ظاهرًا عن نظام القصيدة العربية، فهما يستعملان اللغة الدارجة ويمزجان العربية في بعض الأحيان بعبارات من اللهجات الرومانسية.

أما في بقية صنوف الآداب فقد مضى الناس على ما قرره السلف من مناهج: ففي دراسة الفقه مضى الناس على الأسلوب التقليدي ولم يشذَّ عن ذلك إلا المحاولة الجريئة التي قام بها بَقِيّ بن مخلد عندما أراد أن يلقن الناس أصول مذاهب فقهية أخرى غير المالكية، كالمذهب الشافعي مثلاً. وقد كادت جرأته تلك أن تكلفه حياته، ولولا أن تدخل الأمير محمد بنفسه في الأمر - استجابة لشكوى تقدم بها الفقهاء إليه في أمر بقي - لَمَا نجا الأخير من هلاك محقق، فقد أقر الأمير بَقِيًّا على التدريس كما يريد، وأتاح الفرصة بذلك للمذهب الشافعي لينتشر في الأندلس ويظل مذكورًا فيه؛ حتى سقوط الخلافة[١٨].

❁❁❁❁

بيد أن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠/٩١٢ - ٣٥٠/٩٦١) وُفق إلى إنقاذ الحضارة الإسلامية الأندلسية الزاهرة مما كان يتهددها من الأخطار الخارجية والخلافات الداخلية. فقد كان ذا سياسية حازمة مكنت له من أن يُخضع جماعات العرب لسلطانه، وأعانته على القضاء على قوة عمر بن حفصون (الذي كان قد فقد الكثير من جاهه بسبب ارتداده عن الإسلام واعتناقه النصرانية)، وهاجم الناصرُ ممالك النصارى في الشمال، وتدخل بمهارة فائقة في الخصومات التي كانت قائمة بين الليونيين والقشتاليين والنَّبَرِّيين، واجتهد في إضعافهم وتمكين سلطانه عليهم

من هذا السبيل، وناجز الفاطميين الذين سادوا المغرب وصقلية، واستطاع أن يضع حدًا لمطامع الشيعة في إنشاء دولة عالمية وإخضاع الناس جميعًا للمهدي أو الإمام المستتر.

وكان أساس القوة التي أقام عبد الرحمن عليها سلطانه تلافيه ناحية النقص التي كانت تضعف كيان جيوش الدولة الأموية الأندلسية: وهي تكوُّنها من قبائل منفصل بعضها عن بعض، تحضر المواقع بأعلامها وألويتها، فأنشأ طائفة جديدة ممتازة مخلصة لشخصه وحده، وأضاف إلى عداد الجيش جماعات من «الموالي» الجدد كوَّنها من عناصرَ ذات أصول نصرانية، وهم المسمون «بالصقالبة» الذين كان معظمهم يُجْلب من بلاد أوروبا الوسطى ومن بلاد النصارى في شمال إسبانيا. وقد وصف أهمية هذه الطائفة «برْيتُو بيبيس» في كتابه عن «ملوك الطوائف» بقوله: «ولما كانوا يُرَبُّون منذ نعومة أظفارهم في قصر الخلافة، وتُبذل العناية في تأهيلهم بعلم طيب، فقد انفتح أمامهم الطريق وأصبحوا يكوِّنون صفوة الموظفين الإداريين، وتولوا القيادات العسكرية. وكان عددهم وثروتهم في ازدياد، وأصبحوا يكوِّنون طائفة متميزة في كيان المجتمع الإسلامي الأندلسي»[١٩]. أضفى عبد الرحمن الناصر على الأندلس النظام والرخاء في الداخل، وهيأ له الاحترام والتقدير في الخارج، وزاد في موارد الثروة بتشجيع الزراعة والتجارة والصناعة والفنون والعلوم؛ حتى بلغت كلها أوجها على أيامه، واهتم بتجميل قرطبة حتى أصبحت تضاهي بغداد بهاءً وجمالاً.

وطبيعي أن يصاحب هذا التحليق السامق بعناصر الحضارة المادية تطور في نواحي العلم والأدب، فظهر في عصره شعراء كابن عبد ربه، وابن هانئ، والزبيدي؛ ومؤرخون من طبقة الرازي، وابن القوطية، وصاحب «أخبار مجموعة»، والخُشَني. ولم يَعْدَم نوعُ التأليف الموسوعي - المحبب إلى نفوس المسلمين والذي

يعرف عادة «بالأدب» - ناسًا يمثلونه في الأندلس ويبرزون فيه، كابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد»، وهو أشبه بموسوعة أدبية، تاريخية، فلسفية.

وظهرت البوادر الأولى للفلسفة على يد ابن مسرة (٢٧٠/٨٨٣ - ٣١٩/٩٣١) الذي أذاع بين مسلمي إسبانيا مبادئ المشبَّه بأنبا ذقليس (وهو مذهب أفلوطوني يقول بوجود مادة روحية) على الرغم من معارضة الفقهاء التي لم يكن منها مفر، ولكن هذه البذرة الأفلوطينية قدر لها أن تثمر مع الزمن وتظهر آثارها في تفكير ابن جُبَيْرول وابن عربي.

كذلك أقبل نفر من الأندلسيين على دراسة الرياضيات والفلك، ولكن هذه الدراسات كانت تجري في دوائر ضيقة وفي معزل وستر عن الناس؛ لأن الفقهاء وجمهرة المسلمين كانوا يحرمون تعاطيها. أقبل أولئك النفر على هذين الفنين دون نفور، وكان أول من عني بهما أحمد بن نصر ومسلمة بن القاسم، فكانا بذلك واضعي البذرة التي ستزهر إزهارًا وارفًا في عهد الحكم المستنصر.

كذلك خطت دراسة الطب خطوة حاسمة في الأندلس بعد ما تُرجم كتاب «ديوسقوريديس» الذي كان الإمبراطور البيزنطي قد أهداه إلى الخليفة. هذا وقد كانت دراسة الطب محل عناية الناس في الأندلس قبل ذلك بزمان، إذ إن يونس الحرَّاني كان قد وفد على الأندلس من المشرق حاملاً ذلك العلم الجليل في عهد الأمير محمد.

وطبيعي أن لا تكون عناية الأندلس بالعلوم الدينية قد قلت عن عنايتهم بغيرها من فروع المعرفة: كانت دراسة الحديث موضع العناية البالغة، فظهر محدثون فقهاء متحققون بالحديث من أمثال محمد بن واضح، وابن القوطية وقاسم بن أصبغ، وابن أيمن - وغيرهم كثيرون - أقبلوا على المسانيد المتواترة كمسندي البخاري ومسلم،

وأكثروا من التأليف في شرحها.

وبرع في القراءات والتفسير مَكي بن أبي طالب. وأما الفقه المالكي فقد برع فيه عدد لا يحصى، نذكر منهم: قاسم بن أصبغ وابن أبي زمنين. وظهر في الفقه الشافعي نفر كبير من تلاميذ بقي بن مَخْلَد نذكر منهم أبا أمية الحجاري؛ بل كان الأمير عبد الله بن الناصر نفسه قد بلغ من ميله إلى الفقهاء أن تآمر على أبيه مع نفر منهم مما سار به إلى حتفه مع اثنين من أعلامهم[٢٠].

وكان الخليفة يرعى بعنايته منذر بن سعيد البلوطي ظاهري المذهب الذي مهد طريق الظاهرية لابن حزم، وكان تسامح عبد الرحمن من السعة؛ بحيث كان يُحضر مجالسَه الخاصة الطبيبَ اليهودي ذائع الصيت حَسْداي بن شَبروط. وكان من نتائج هذه الرعاية التي أضفاها الناصر على حسداي أن بدأت الدراسات التلمودية في إسبانيا، ولم تلبث هذه البلاد أن أصبحت مركز الدراسات العبرية؛ وكان من نتائج عناية حسداي بهذه الدراسات العبرية أن تحسن حال إخوانه في الدين، مما أتاح لليهود - فيما بعد - أن يقوموا بنصيب كبير في الثقافة الأندلسية.

وكانت مكتبة القصر التي عني بها الناصر دليلاً واضحًا على الدرجة العالية التي بلغتها الثقافة الأندلسية في عصره؛ وقد تكونت منها ومن مكتبتي الأميرين محمد والحَكم مجموعة الكتب العظيمة التي كانت موضع فخر الحكم المستنصر.

وكان الحَكم الثاني (المستنصر ٣٥٠/٩٦١ - ٣٦٦/٩٧٦) أكثر الخلفاء الأندلسيين تسامحًا وحريةَ فكر. قال دوزي: لم يحكم إسبانيا يومًا من الأيام حاكم على هذه الدرجة من العلم، نعم إنَّ كلَّ من جاءوا قبله من أمراء الأندلس وخلفائها كانوا رجالاً ذوي علم وولع بجمع الكتب؛ ولكن أحدًا منهم لم يطلب

الكتب القيمة والنادرة بهذه الهمة:

فكان له في القاهرة وبغداد ودمشق والإسكندرية عمال مكلّفون باستنساخ كل الكتب القيمة قديمة كانت أو حديثة، وكان قصره حافلاً بالكتب وأهلها؛ حتى بدا وكأنه مصنع لا يرى فيه إلا نساخون ومجلدون ومزخرفون يحلون الكتب بالمنمنمات والرسوم الجميلة. وكان فهرست مكتبته يقع في أربع وأربعين كراسةً في كل منها عشرون ورقةً - على قول، وخمسون على قولٍ آخر - «ليس بها إلا أسماء الدواوين لا غير، وأقام للعلم والعلماء سوقًا نافقة جُلبت إليها بضائعه من كل قطر». وقد قدر بعض المؤرخين عدد مجلداتها بما يربو على أربعمائة ألف كتاب، قرأها الحكم كلها، وعلق على معظمها، وكان يكتب في أول كل مجلدة أو في آخرها «نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتي من بعد ذلك بفرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن»[٢١].

وكان الحكم أعلم الناس بتاريخ الأدب، وكانت إشاراته وتعليقاته حجةً يرجع إليها علماء الأندلس، بل كانت أخبار الكتب المؤلفة في فارس والشام كثيرًا ما تتصل بعلمه قبل أن يخرجها أصحابها.

وقد انتهى إلى علمه مرة أن عالمًا من علماء العراق - وهو أبو الفرج الأصفهاني - معنيٌّ بجمع أخبار وأشعار لشعراء العرب ومغنيهم، «فأرسل إليه بألف دينار من الذهب العين فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه في العراق لوكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه مختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك»[٢٢]، وقد بعث الأصفهاني مع نسخة كتابه بقصيدة يمدح بها الخليفة وأردفها بمؤلّف له في نسب بني أمية، فكافأه الحكم بمنحةٍ أخرى.

وعلى الجملة فقد كان كرم الحكم على علماء الأندلسيين لا يعرف حدودًا،

وكان لهم كذلك أثر ملحوظ في بلاطه، إذ كان يقدّمهم على كل من عداهم ويشملهم برعايته، وشمل بفضله هذا الفلاسفة أيضًا»[٣٣].

وأطلق الحكم للرياضيين والفلكيين الحرية في إذاعة علومهم في الناس، ومن هنا ظهرت إلى الوجود مدرسة مَسْلَمَةَ المجريطي في مدريد؛ ومَسْلَمةُ هذا هو الذي أدخل رسائل إخوان الصفاء في الأندلس. ولقيت دراسة الطب عناية عظيمة بفضل أبي القاسم الزهراوي. وكذلك نهضت دراسة النبات على يد سليمان بن جُلجُل.

وكان الخليفة يُحضر مجالسه ابن صلا الله القرطبي لأحمد بن عبد الوهاب بن يونس المعروف بآرائه المعتزلية المنحرفة، بسبب ما كانت تذهب إليه من تحكيم العقل في مسائل الشرع والعقيدة. كذلك كان الحكم يظلل بحمايته نفرًا من الشافعيين تحولوا إلى مذهب الاعتزال، وكان يحتفظ في مكتبته بنسخة من «كتاب الأم» للشافعي، وعليه وقد الأديب العالم المشرقي النابة أبو علي القالي، وكان رجلاً فذًا ذا أثر ملحوظ فيمن عاصره أو جاء بعده من أهل الأندلس.

وإلى جانب شخصية المنصور بن أبي عامر تلاشت شخصية الضعيف المتطامن هشام بن الحكم - الملقب بالمؤيد - الذي خلف أباه على عرش الأندلس (٣٦٦/٩٧٦ - ٣٩٦/١٠٠٥).

وقد اقتضت سياسة المنصور ورغبته في تأييد مركزه أن يضيف إلى من كان يؤازره من عناصر جيش الخلافة من المولدين والصقالبة عنصرًا جديدًا عظيم الخطر شديد التأييد له، فكوّن جيشًا من البربر الذين جلبهم من إفريقية وجمع أزمّة قيادتهم بيده وحده، وتمكن بفضل هذا الجيش الجديد من أن يوقف كل تقدم للنصارى جنوبي نهر دُوَيْرُه، وتمكّن من الاستيلاء على ليون وشنت ياقب وبرشلونة. واستبد بالأمر وحده، وقهر الأندلسيين على الطاعة لحكومة استبدادية

عسكرية، فكانت النتيجة أن أضطرمت نيران الفتنة التي قصمت ظهر الأندلس بُعَيْدَ وفاته وبعد أن تراخت يده الحديدية. وكان من نتائج استبداده كذلك أن تعثَّرت الحضارة الأندلسية في سيرها على أيامه.

ولقد كان المنصور أول أمره شغوفًا بالفلسفة، فأنكر منه الفقهاء ذلك، واستطاعوا أن يثيروا عليه غضب العامة، فرأى - وهو السياسي الكيِّس البعيد المطامح - أن يضحي بشغفه في سبيل غاياته، وأمر بإحراق كل ما كان في مكتبة القصر من كتب الفلسفة والفلك وغيرهما من العلوم التي لا يرضى عنها الفقهاء[٢٤]؛ حتى يستعيد حب الناس له. وهكذا أعاد إلى الفقهاء ما كان لهم من قوة وسلطان، فكان ذلك خطوةً إلى الوراء (ومن نتائجه أن اضطر المهندس نابه الذكر عبد الرحمن بن إسماعيل بن زيد - الملقب بـ «إقليدس الأندلس» أو الإقليديسي - إلى أن يهجر وطنه)؛ ولكن الفقهاء رغم ذلك لم يستطيعوا اعتراض طريق الحركة العلمية التي عظم نشاطُها على عصر ملوك الطوائف.

وكان الشعر الغنائي هو اللون الأدبي الذي غلب على غيره في بلاط المنصور. وقد بلغ من غلبته أن أُنشئ ديوان خاص للشعراء، جُعلوا فيه طبقات، وقدِّرت جوائزهم على قدر مراتبهم، فكانوا ينالون أجزل الصلات على ما ينشئون من شعر غالبه المديح. وكان أبرز شخصيات هذه الدائرة الأدبية التي أحاط المنصور بها نفسه صاعد البغدادي، والرمادي والوزير أبو المغيرة بن حزم. وكان بينهم كذلك شعراء يتحدث شعرهم عن تشاؤم وسوء ظن بالدنيا، مثل ابن أبي زمنين. بل ظهر شعراء من بين الصقالبة، وهم طبقة اجتماعية سيكون لها في تاريخ الأندلس بعد سقوط الخلافة شأن عظيم. وإذا استثنينا بضعة فقهاء مالكيين من طبقة ابن الحذّا (محمد بن يحيى بن أحمد) وبضعة مؤرخين من طراز ابن الفرضي، الذي كان أول من وضع معاجم الرجال بالأندلس، فإن عصر المنصور لا يمتاز بأية شخصية من

الطراز الأول في ميدان العلوم والفنون.

❁❁❁❁

كانت ثورة قرطبة على أولاد المنصور والفتنة الكبرى التي أعقبتها قاضيتين على الخلافة. وقد تطاحنت على دفة الأمور خلال هذه الفتنة المبيرة طوائف شتى كان كل منها يحسب أنه قادر على قطع دابر الفتنة وإعادة الدولة وتسيير الأمور، فقامت عقب سقوط الخلافة حكومة في قرطبة أشبه بحكومات البلديات (عام ١٠٣١/٤٣١)؛ وانتهى تطاحن الطوائف إلى تحزبها خلال أدوار الفتنة الأهلية في طوائف ثلاث متعادية فيما بينها:

البربر: وقد استولوا على الجزء الجنوبي من الأندلس، والصقالبة وقد انحازوا إلى شرقه واستبدوا به، والأندلسيون: وقد أقاموا دولهم فيما بقي للمسلمين من الجزيرة.

ولم يلبث بعض هذه الدويلات الناجمة أن صارت إلى جيرانها واختفت دون أن تخلّف أي أثر يذكر في التاريخ الأدبي، بينما استطاع بعضها الآخر البقاء في الميدان، وقامت بينها منافسة حامية في ميادين العلوم والآداب. ونشأ عن هذا التنافس أن نهضت الآداب نهضة بلغت بها أقصى درجات ازدهارها في تاريخ الأندلس الإسلامي.

وقد كان هذا الازدهار نتيجة لعوامل أخرى كثيرة، أهمها أن عصري الإمارة والخلافة كانا بمثابة فترة إعداد طويلة تجمعت خلالها مواد وافرة غزيرة في كل فرع مِن فروع الدراسات واختمرت اختمارًا طويلاً، **وثانيهما**: أن علماء قرطبة غادروها أثناء الفتنة وانتشروا في شتى نواحي الأندلس، وكذلك تفرقت في كل ناحية مجموعات الكتب التي كانت مختزنة في مكتبات قرطبة، **وثالثها**: تلك

الحرية التي أباحها ملوك الطوائف في شتى نواحي الحياة الاجتماعية بما فيها الناحية الدينية.

وليس معنى هذا أن الفقهاء انصرفوا كما كانوا يتمسكون به من سلطان ولكنهم لم يحفلوا للأمر كثيرًا في ذلك العصر المضطرب، ولم يكن يخطر لهم ببال أن المقادير ستتيح لهم من جديد فرصة الأخذ بالثأر في ظلال المرابطين، فينزلون بخصومهم أشد الانتقام.

ففي قرطبة - حيث صارت مقاليد الحكم إلى الوزير الشاعر أبي الحزم بن جَهْور - ظهر ابن حزم صاحب التواليف الكثيرة في كل فن، وهو من أفذاذ الأعلام المعدودين في تاريخ الأندلس.

وإن المتأمل في مؤلفاته وما تحويه من مادة غزيرة ليرى بوضوح أن ذلك الإنتاج الحافل لا يمكن أن يصدر إلا عن حضارة بلغت من التقدم مبلغًا عظيمًا. فذلك التحليل النفسي الدقيق الذي يتجلى في كتابه «طوق الحمامة»، وهذه الملاحظات الشخصية النافذة على الرجال وأخلاقهم التي يبديها في كتاب «الخصال»، ذلك كله يتحدث عن بيئة ذات حضارة عالية. فأمَّا تاريخ الأديان الذي ألفه باسم «الفِصَل في الملل والنحل» فقد سبق به أوروبا النصرانية ببضعة قرون - كما يقول بحق أستاذي ميجيل آسين بلاثيوس - لأن التأريخ للأديان لم يعرف في الغرب إلا في منتصف القرن التاسع عشر.

أما مذهبه الفقهي «الظاهري» الذي يقوم على التفسير الحرفي للقرآن، فلم يجد عند فقهاء عصره قبولاً، بل تعقبوه في عنف وضيقوا عليه الخناق، ولكن ابن حزم كان قد بعث فيه من الحيوية ما مكن له من البقاء دهرًا طويلاً، رغم إنكار الفقهاء له.

وكانت لابن حزم مساجلات ومجادلات حامية اضطر إلى خوضها مع الفقهاء دفاعًا عن آرائه، ونخص بالذكر مجالس الجدل التي دارت بينه وبين أبي الوليد الباجي الفقيه الأشعري المعروف، فقد ظل صداها يتردد في جوانب العالم الإسلامي دهرًا طويلاً؛ وهي تدل على مواهب ابن حزم ولسانه الحاد اللاذع.

وأخمل ابنُ زيدون - ذلك الفريد المولد في ولادة - ذِكْرَ الكثيرين من معاصريه ممن كانوا أقل شأنًا منه كالحميدي؛ وظهر مؤرخون مثل ابن حيان المحقق ذي الأسلوب القوي الجميل. ولم ينجب الأندلس بعد هذين من أربى عليهما في ميدانهما. كذلك دام للمالكية جاهها بفضل فقهاء من طبقة ابن الطَّلاَّع.

ولم يتح للأدب أن يصل إلى مستوى رفيع في غرناطة؛ لأن أصحاب الأمر فيها كانوا من طوائف البربر؛ ومع ذلك فقد ظهر في سمائها من أعلام الأدب والعلم غرباء عن الأندلس - مثل المغامر المشرقي أبي الفتوح الجرجاني، وكان شاعرًا فيلسوفًا فكليًا - ورجال من جنس ولغة آخرين - مثل اليهودي صمويل بن النَّغْدِلَّة، الذي ارتقى بالدراسات العبرية في الأندلس إلى أوج بعيد - وأندلسيون مثل الفقيه أبي إسحاق الإلبيري الذي دفع أهل زمانه إلى خلع نير يوسف بن صمويل بن النغدلة، أما الشعراء والكتاب ذوو المواهب العالية من أهل غرناطة فقد اضطروا إلى اللجوء إلى بلاط المرية.

وعاش في المرية في أول عصر الطوائف الوزير أحمد بن عباس، وكان رجلاً فذًا معنيًا بالعلم وأهله، وكانت له مكتبة تضم أربعمائة ألف مجلد.

وقد أدركت المريةُ أوجَها الأدبي في عصر أميرها المعتصم بن صمادح (٥٤٦/ ١٠٥١ - ٥٨٧/١٠٩١)، الذي كان راعيًا صادقًا للآداب والفنون والعلوم، فالتف حوله شعراء مثل ابن شرف البَرْجِيّ، وابن أخت غانم، وابن الحداد الوادي آشي

والسميسر الإلبيري. وكان أولاد المعتصم هذا - وهم أبو جعفر، وعز الدولة، ورفيع الدولة، وأم الكرام - شعراء كلهم. كذلك عاش في بلاطه علماء مثل أبي عبيد البكري الأديب، وكان من طلائع الجغرافيين المسلمين.

وكان الحال في إشبيلية شبيهًا بما كان عليه في «المرية» إذ طغى الشعر فيها على ما عداه من أَضْرُب الأدب في ظل بني عباد.

ولقد كان المعتضد والمعتمد من أعلام الشعراء، ومن ثم لا نستغرب أن يكون بلاطهما مدرسة تخرج فيها أهل الآداب. وقد وصلت الخمريات وشعر النسيب والغزل أعلى درجات الكمال في ذلك البلاط المصقول؛ حيث عجز شعراء مجيدون - من طبقة علي بن حصن، وابن حمديس الصقلي، وأبي بكرٍ بن زيدون، وأبي بكر بن اللبانة، وغيرهم كثيرون - عن إدراك ما وصل إليه ابن عمار وزير المعتمد النابه الذكر المنكود الحظ، من تحليق بعيد في سماء الشعر. وقصروا كذلك في ملاحقة «اعتماد» نفسها - زوج المعتمد وجارية رُمَيْك التاجر الإشبيلي قبله - فضلاً عن مجاراة الملك الشاعر المعتمد فيما أبدعه من رائع القصيد.

والحق أن المعتمد وفق - في أيام سعوده ومجده - إلى درجة من التجويد مكنت له من أن يصل بشعره - في أبواب الغزل، ووصف مجالس السرور، ووصف الحرب والنصر - إلى آفاق استدرت إعجاب البدو أنفسهم. فلما تنكرت له الأيام، وعانى أوصاب السجن والهوان، أخذت نفسه الفنانة تجود بدرر من الشعر لا زالت تثير في أنفسنا - إلى اليوم - الإجلال لهذا الملك الفارس الشهم الكريم.

أما بنو الأفطس، أصحاب بطليوس، فقد استطاعوا هم الآخرون أن يرتفعوا بالثقافة في قطرهم إلى أوج رفيع؛ وتمكن المظفر بن الأفطس أن يجمع من مكتبته الخاصة مواد موسوعته «المظفرية» ذائعة الصيت. وقد ضم ديوان المظفر هذا ابن عبدٍ

البر أعلم أهل غرب الأندلس في زمانه بالحديث، وكان إلى ذلك شاعرًا قادرًا على نهج القدماء. وفي بلاط بني الأفطس عاش عبد المجيد بن عبدون الشاعر، ومن مآثره تلك القصيدة التي رثى فيها بني الأفطس لما أصابهم على أيدي المرابطين، وهي قصيدة رصينة الصياغة إلا أنها فاترة الروح مدرسية المنهج.

وأما في طليطلة؛ حيث نشر بنو ذي النون سلطانهم، فقد طغى التأليف العلمي على ما عداه. ففي هذا البلد عاش الزرقالي، أبرع من أنجب الأندلس من علماء الفلك، ووضع نظرياته العلمية. وكان أبو عثمان سعيد ابن محمد بن البغونش فيلسوفًا ورياضيًا، أما ابن وافد (Eben Gucfet عند مترجميه إلى العبرية واللاتينية) فكان من أوسع أطباء أهل زمانه علمًا بالطب. وقد مارس هذا الفن كذلك محمد التميمي، وكان يلقنه لطلبته بطريقة عملية تجريبية (إكلينيكية).

وكان من نابهي شعراء هذه المملكة (ابن أرفع رأسه) وعاش في طليطلة كذلك نحويون مجيدون كأبي الوليد الوَقَشي، وأصحاب وثائق وشروط متمكنون من تحرير العقود، كابن مغيث. وأطلعت طليطلة إلى جانب هؤلاء مؤرخين نابهين، مثل صاعد الطليطلي والحجاري.

وكان الحال في سَرَقُسْطة شبيهًا بذلك: إذ كان المقتدر والمؤتمن - من بني هود - من أنصار العلوم ومن المتجردين لرعايتها في تحمس، وخاصة الفلسفة والرياضيات والفلك. وقد ألّف «المؤتمن» كتابًا في هذا العلم الأخير علق عليه موسى بن ميمون.

وعلى سَرَقُسْطة وفد فلاسفة كابن جبيرول وابن باجة؛ ولقيت رسائل إخوان الصفاء إقبالاً عظيمًا من أهلها، وكان الكرماني قد حملها من المشرق؛ وفي ربوع سَرَقُسْطة عاش أبو بكر الطرطوشي صاحب الكتاب اللطيف المسمى «سراج الملوك».

وساد الشعراء في بلنسية ومرسية على من عداهم من أهل العلم والأدب؛ فكان منهم عبد الجليل بن وهبون المرسي صاحب القصيدة المعروفة عن وقعة الزلاقة، وأبو عيسى بن لَبُّون الأديب صاحب بلدة مُريطر، والوَقَّشي الذي صور الدمار الذي أنزله السِّيد «القمبيطور» ببلنسية، وابن خفاجة صاحب الخمريات طائرة الصيت والمبدع في شعر الغزل ووصف مجالس الأنس والسرور. ولم يخل هذا الإقليم كذلك من رجال متضلعين في فنون أدبية أخرى، مثل أبي الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيدَه صاحب «المخصص» المعروف.

❁❁❁❁

بيد أن انتثار عقد الأندلس وتفرق أمره في دول الطوائف، كان في ذاته سبب ضياع أمره ؛ لأن هذه الدويلات الصغيرة كانت على حال من الضعف لم تستطع معه أن تثبت لهجمات النصارى الذين انتهجوا خطة تختلف عما كان عليه المسلمون إذ ذاك، واتجهوا إلى توحيد قواهم أمام المسلمين الذين لم تتوقف الخصومات بينهم أبدًا، بل لقد أصبح ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة (١٠٨٥/٤٧٨) في مركز مكّن له من أن يُعين بعض ملوك الطوائف على بعض، ويتدخل في شئون مملكة بلنسية، وعظمت قوته واشتد خطره على المسلمين؛ حتى خافه المعتمد ودخل في ولائه وزوَّجه إحدى بناته[٣٥].

وكان الفقهاء يعتقدون أن سبب اضمحلال البلاد إنما هو انصراف أمراء الطوائف عن الدين وحدوده، فأمَّلوا - لهذا - أن تصلح الحال إذا استعانوا بالمرابطين. وعارض الأمراء في الاستعانة بهم ما استطاعوا المعارضة، إذ إنهم توجسوا شرًّا من مزاحمتهم لهم على السلطان في الأندلس، ولكن الغالب أن جمهور الناس ألحوا في استقدام المرابطين، وتوجه بالفعل وفد مؤلف من قضاة بطليوس وغرناطة وقرطبة ووزير إشبيلية أبي بكر بن زيدون إلى إفريقية، وقابلوا يوسف بن تاشفين

واستصرخوه لنجدة؛ الأندلس فأجابهم إلى ما طلبوا.

وعبر يوسف إلى إسبانيا ثلاث مرات، وأخذت تتعقد حوله وهو منصرف إلى الحرب في الأندلس شباك تدبيرين في وقت واحد: الأول دبره ملوك الطوائف للإيقاع به وأذاه؛ وعقد أطراف الثاني الفقهاء ورموا من ورائه إلى إسلام الأندلس جملة إلى يوسف بن تاشفين. واجتهد الفقهاء في ذلك، وسعوا بأمراء الطوائف وتكلموا مع الأمير في خلعهم؛ وانتهى الأمر باقتناعه برأيهم، وعقد النية على استنزال أمراء الطوائف الأندلسيين عن عروشهم، إذ تبين عجزهم عن مقاومة النصارى، ووجد أن جمهورًا كبيرًا من الناس يؤيده في هذا العمل، فاستصدر من الفقهاء فتوى بعدم صلاحية ملوك الطوائف للحكم وضرورة عزلهم، ولم يلبث الأندلس جميعه أن دخل في دولة المرابطين.

❁❁❁❁

كان إعجاب دوزي بملوك الطوائف لا يكاد يعرف حدًّا، بل بلغ به الإعجاب ببني عباد أصحاب إشبيلية مبلغ الوله الشديد، ومن ثَمَّ صور استيلاء المرابطين على ممالك الطوائف تصويرًا حالك السواد: فجعل هؤلاء الأفارقة متبربرين أغاروا على البلاد وقضوا على الإزهار الحضاري الفكري الذي تمتعت به في عصر الطوائف. وقد استند دوزي إلى عبارة قصد بها عبدُ الواحد المراكشي المؤرخ عليُّ بن يوسف وحده، ولكن دوزي عمَّمَها فجعلها تشمل المرابطين أجمعين، وهذه العبارة هي:

«واختلّت حال أمير المسلمين لعلي بن يوسف بن تاشفين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالاً شديدًا، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة: وذلك لاستيلاء أكابر لمرابطين على البلاد، ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح أنه خير من أمير المسلمين وأحق بالبلاد منه. واستولى النساء

على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لَمْتُونة ومَسُّوفة مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين - في ذلك كله - يتزيد تغافله، ويقوى ضعفه؛ وقنع باسم إمرة المسلمين وبما يُرفع إليه من الخراج، وعكف على العبادة والتبتل، (فكان يقوم الليل، ويصوم النهار مشتهرًا عنه ذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال): فاختل عليه - لذلك - كثير من بلاد الأندلس، وكادت تعود لحالها الأولى، لا سيما بعد أن قامت دولة الموحدين بالسوس»[٣٦].

وقد كانت مبالغات دوزي السبب الذي دفع أستاذ المستعربين الإسبان «فرَنْسِسْكُو قُدِيرَه» إلى أن يرد عليه ويستخرج - بدقته المعهودة - العددَ الضخم من العلماء، وأهل العلم، وأهل الآداب، الذين تألق نورهم في هذه الفترة، ويثبت بهذا خطأ وصف هذه الفترة بأنها فترة متبربرة[٣٧].

وإليك نص ما يقوله دوزي عن الشعر (في هذه الفترة): «وإن أشد ما يصدمنا في ذلك الشعر ما يسوده من روح الاستسلام الديني، مع ما كان عليه الشعر الأندلسي من القوة والحيوية قبل ذلك حين كان دنيويًا خالصًا يتحدث عن متاع الدنيا كله. ولم تكن لتخالطه أفكار أخروية، وكان الشعراء يتغنون بالخمر وألوان اللهو دون أن يحفلوا للدين وأهله. فكان شعرهم حيًا لا يعجب إلا بالنشاط والحركة وكان الشاعر فخورًا بموهبته، مدركًا لخطورة شأنه، فكان يتعرض لأخطاء الأمراء بالنقد دون خوف. وكان يستثير حرارة كل تلك الخصال التي كان العرب يرون فيها نبلاً وجمالاً.

وكان الحال على العكس من ذلك في حكم عليّ المرابطي: ففي ظل هذا الرجل التافه حلت النساء والفقهاء محل كبار الناس وأشرافهم. وكان الشعر صورة صادقة للعصر، فانتقل من القوة وخلو البال والخفة واللهو إلى الجبن والجفاف

والحزن والتدين.

وكانت هذه الأزمان من السوء؛ بحيث أخذت العيون ترتفع عن الأرض إلى السماء. كان أهل هذا الزمان يقاسون ويستسلمون، في حين كان أهل العصر الذي سبقه يغالبون المقادير؛ واختفت - لهذا - الصور الشعرية الجميلة. فإذا تصدى الشعراء للصور القديمة يحاولون تقليدها لم يلبثوا أن يتخبطوا في السخف والابتذال، ولم نعد نسمع غير مدائح عقيمة لصاحب الأمر الذي كن معتبرًا رمزًا للألوهية ولروح التقى المتصنع المبالغ فيه، وصاحَب هذا - جنبًا إلى جنب - فساد شامل للعادات وانقلاب كامل للنظام الاجتماعي»[٢٨].

ونتبين مبالغة دوزي في تشويه صورة العصر المرابطي إذا عرفنا أن من أبناء هذا العصر ابن قزمان أجرأ شعراء الأندلس، وحينما نرى أن ابن قزمان لم ينفرد وحده بتلك الجرأة، بل كان له تلاميذ وأتباع عديدون. ونستطيع أن نعارض كلام دوزي بكلام أستاذي خُليان ريبيرا في مقاله عن ابن قزمان؛ قال:

«استقرت في عقول الناس لعن العصر المرابطي صورة خيالية (أي غير واقعية) لشعب متعصب، عدو للفلسفة، منصرف إلى اضطهاد الناس؛ وذلك نتيجة لما تعود الناس أن يقرءوه من أوصاف لتاريخ هذا العصر وأحوال الدين فيه، كتبها فقهاء.

ولكن هذا الشعر (أي شعر ابن قزمان) يحمل إلينا نسيمًا جديدًا، فهو غريب في روحه يحمل إلينا نفحات من أجواء المجتمع العليا والدنيا. ونحن نظفر فيه بأوضح الإشارات عن هذا المجتمع الذي كان مدركًا لنفسه، فخورًا بثقافته الأدبية المهذبة، رغم تفرق أمره وضياع وحدته. ولقد توافق على ذلك الزمان الأوجُ الثقافي الأدبي وأقصى درجات الاضمحلال السياسي والاجتماعي.

وإن تأمل أحوال الأندلس - إذ ذاك - ليوحي إلينا بكثير من الخواطر: إذ إنه

من الصعب أن نجد فترة من التاريخ الإسباني تألق فيها مثل هذا العدد من عباقرة عظماء من هذا الطراز: مفكرين وشعراء وأهل أدب ورجال علم. ويصعب جدًّا - كذلك - أن نجد فترة تضارع هذه في التفكك السياسي، وفي الأهمية الاجتماعية. فهذا الشعب، الذي بلغ هذا المبلغ من الثقافة، قد ترك قياده السياسي والدفاع عن أرضه إلى جموع من الأفارقة هم المرابطون.

في ذلك العصر وصل الإسبان من أهل الجنوب[٢٩] (أي الأندلسيين) إلى أعلى درجات الإزهار الأدبي، بل كان لهم أدب شعبي يجري على أساليب أوروبية: كانوا يلبسون أزياء أوروبية، ويحتفلون بأعياد غير إسلامية - «كعيد يناير» و«عيد القديس يوحنا» - ويسيِّرون أعمال زراعتهم وغيرها مما تمس إليه حاجاتهم بمقتضى التقويم الأوروبي. ثم إنهم كانوا - كما رأينا - يتحدثون لغة أوروبية، ويديرون أغانيهم حول مواضيع أوروبية، ولما كانوا هم الشعب الأوروبي الوحيد الذي أزهرت عنده الفنون بشتى صنوفها، والآداب والفلسفة وغيرها إزهارًا عظيمًا، فقد أصبحوا - بهذا - المثلَ الذي يُحتذى، وسوقَ ثمارات الفكر المقصود. وحينما نهضت أوروبا نهضتها الفلسفية والفنية والعلمية والأدبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كان الأندلسيون من أكبر شعوب أوروبا أثرًا في الفلسفة والفلك والطب والقصص وشعر الملاحم وما إلى ذلك. ولم تزُل الآثار العميقة التي خلقتها هذه النهضة إلا حينما ترددت في جوانب أوروبا هتفات النهضة الإغريقية»[٣٠].

والتحليل (العلمي) يؤيد ريبيرا فيما يذهب إليه. نعم إن الواقع أن شعراء هذا العصر لم يتفوقوا على غيرهم، ولكن الواقع كذلك أن فنونًا أدبية كبرى وصلت إلى أرفع درجات تطورها خلاله.

ونستطيع أن نذكر ممن نبغ في النقد الأدبي أبا الفتح بن خاقان وأبا الحسن بن بسّام، اللذين درسا شعر عصرهما وشعر القرن الذي سبقه، دون أن يعرضا للتيار

الشعري الشعبي الدارج الذي يمثله ديوان ابن قزمان وجميع الزجالين الآخرين الذين لا يحصيهم العد.

وظهرت في ميدان التاريخ مؤلفات ابن بشكوال والضبّي، ومؤلفات أخرى كثيرة في تواريخ النواحي. ويمكننا أن نذكر من بين كُتّاب التراجم الكثيرين ابن خير. وأما الجغرافية فقد اتسعت ثروتها بما انضاف إليها من مؤلفات أبي حامد الغرناطي والإدريسي. وفي ميدان الفلسفة بدأ ابن باجة دراسات أرسطاليس.

وبرع في الرياضيات ابن مسعود وابن سهل الضرير وجبر بن أفلح الإشبيلي. وفي ميدان الطب نبغ أبو الصلت الداني وابن باجة ومعاونه سفيان الأندلسي. وفي ذلك الوقت بدأ نجم ابني زهر - أبي مروان وأبي العلا - يظهر.

أما في عالم الفقه فقد ظهر ابن أبي الخصال والقاضي عياض بن موسى. وظهر في دراسات الحديث الرشاطي، وفي النحو ابن الباذش وفي علوم الدين أبو بكر بن العربي تلميذ الغزالي الذائع الصيت.

❁❁❁❁

وكانت الأسباب السياسية والاجتماعية التي أدت إلى الغزوة الموحدية شبيهة بتلك التي سببت ذهاب دول الطوائف، وقد قلنا في موضع آخر إن: «الأندلسيين حينما وجدوا أنفسهم حيال حكومة ضعيفة فاسدة وقوة حربية تضعضعت وانكسرت شوكتها، وحينما رأوا كساد تجارتهم وصناعتهم وأحسوا أنهم فريسة الفلاء وغزوات النصارى، أخذوا يلعنون هؤلاء المرابطين الذين كانوا قد رجوا الخلاص على أيديهم، وبلغ بهم الأمر أن سألوا سيف الدولة - آخر بني هود وحليف الإمبراطور ألفونسو السادس - في سنة ١١٣٥/٥٣٠ أن يتفق مع ملك قشتالة على أن يعينهم على التخلص من المرابطين، لقاء جزية ثقيلة يؤدونها له»[٢١].

وحوالي منتصف القرن الثاني عشر، كان الموحدون قد أصبحوا سادة لجزء كبير من مراكش، يقودهم محمد بن تومرت الذي تسمى بالمهدي - أي «المسيح» الذي وعد النبي محمد بظهوره[٣٢]. وفي ذلك الحين كانت نيران الثورة على المرابطين تتأجج في نواحي الأندلس جميعها، وكان يقودها ابن قَسي المَرتُلي تعينه طائفة من المتصوفة يسمون «المريدين»، كان قد أنشأها أبو العباس بن العريف في المَرِيَّة، فاستنجد ابن قسي بعبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين وحصل على معاونته. ولم يلبث الموحدون أن احتلوا ما بقي في أيدي المسلمين من الأندلس.

ولم يتوقف تقدم الآداب في أثناء ذلك كله، بل بلغ من كثرة الشعراء الذين هنئوا أبا يوسف يعقوب المنصور بقصائد من الشعر الفصيح أو الزجل الدارج أن أمر بألاّ ينشدوه إلا البيتين الأولين من قصائدهم. وممن ظهر في هذا العصر أبو جعفر بن سعيد صاحب النسيب المعروف في حفصة الركونية، وعبد الرحمن السُّهيلي، وأبو الحسين محمد بن جبير، وأبو البقاء الرندي، وابن الأبار، وكلهم شعراء لهم مقامهم في الشعر الأندلسي. وقام عقيل بن عطية، وأبو العباس أحمد الشريشي بشرح مقامات الحريري.

ونبغ في التاريخ ابن الأبار، وفي الجغرافية ابن جبير، وفي الفلك البطروجي Alpetragius[٣٣]، وفي الطب بنو زهر. وبرع ابن البيطار [ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد] في النبات، وابن قُرْقُل [أبو إسحاق إبراهيم] وابن الأُقليشي [أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل التجيبي الزاهد] - وغيرهما كثيرون - في علوم الشرع، وأبو علي الشلوبيني وابن السيد البطليوسي في النحو.

وكانت الفلسفة أوفر نواحي الثقافة الإسلامية حظًّا من العناية في عصر الموحدين[٣٤]. وقد غلب على هذه الفلسفة طابعان: الأول أرسطي: يمثله ابن باجة وأبو بكر بن طفيل وأبو الوليد بن رشد خاصة، وهذا الأخير هو صاحب الفضل فيما

عرفته معاهد الدرس في أوروبا النصرانية من كتابات أرسطو، وكان - أي ابن رشد - رجلاً متدينًا صرف همه إلى التوفيق بين الدين والفلسفة؛ والثاني أفلاطوني حديث يمثله محيي الدين بن عربي المتصوف «الحائر الجوال» الذي ترك آثارًا في داخل العالم الإسلامي (نلاحظها عن ابن سبعين مثلاً) وخارجه (نلاحظها عند دانتي ورايموندو لُولْيو).

ولكي نستوفي الكلام عن ارتفاع شأو العلوم في الأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي لا بد لنا من الإلمام بذكر يحيى (يهودا) بن ليفي الذي انتفع بالفلسفة في تفهم العقيدة الموسوية وشرح أصولها، وموسى بن ميمون الذي اجتهد في أن يؤدي للدين اليهودي مثل ما أداه ابن رشد للإسلام فيما يختص بعلاقتهما بالفلسفة. ولنذكر كذلك أن مؤلفات مفكري المسلمين كانت تترجم إلى اللاتينية إذ ذاك في طليطلة. وكان هذا هو الطريق الذي انتقلت عن سبيله علوم اليونان وثروتها الفكرية إلى مدارس الغرب. وقد استمر هذا التأثير الإسلامي حيًّا فعالاً؛ حتى عصر ألفونسو العاشر، الذي يدين للثقافة الإسلامية بالشيء الكثير.

❁❁❁❁

ومن منتصف القرن الثاني عشر الميلادي انكمشت دولة الإسلام في الجزيرة واقتصرت على مملكة غرناطة، وكان استغلاب النصارى للجانب الأكبر من الأندلس الإسلامي قد دفع علماءه - بصفة عامة - إلى الهجرة إلى مراكش وبلاد المشرق؛ حيث استقروا ومضوا ينشرون علومهم، وطار صيتهم. وهكذا رد الأندلس إلى المشرق ما أسلف إليه في الأعصر الخالية.

ظل مستوى الثقافة رفيعًا في مملكة غرناطة؛ حتى القرن الخامس عشر الميلادي، فعاش في بلادها شعراء من طراز ابن سعيد المغربي، وأثير الدين أبي

حيان، ولسان الدين بن الخطيب يسترجعون ذكريات الأزمن الزاهرة الخوالي ويعيدون إلى نفوسنا ذكراها.

ونبغ فيها مؤرخون كابن الخطيب وابن خلدون، ورحالون كالعبدري [رزيق بن معاوية] وابن رُشَيد [أبي عبد الله محمد بن عمر]، ورياضيون كابن البنّاء [أبي العباس أحمد بن محمد الأزدي] الذي لا زال كتابه «التلخيص في أعمال الحساب» متدارسًا في جامعة فاس إلى اليوم، أو كالرقوطي [أبي بكر محمد بن أحمد] الذي قبس ألفونسو الحكيم من معارفه الشيء الكثير.

وظهر فيها نحويون مثل أثير الدين أبي حيان، الذي هجر إلى المشرق وأقام فيه بقية حياته ينشر علومه: فقد كان إلى جانب نبوغه في النحو متحققًا بطائفة كبيرة من علوم الإسلام.

وتجلى في غرناطة كذلك علماء في الشرع مثل محمد بن أحمد بن حرب وأبي بكر محمد بن عاصم، الذي لا زال كتابه «التحفة» متدارسًا متداولاً في فاس إلى اليوم كذلك.

وظهر فيها محدثون مثل ابن سيد الناس وعمر بن نور الدين الأنصاري الذي انتقل إلى القاهرة وصار أستاذًا بها. هؤلاء جميعًا كانوا أعلامًا على قوة الحيوية التي كانت تتوفر في كيان الثقافة الأندلسية الإسلامية، فقد استطاعت هذه الآداب البقاء رغم قلة ما كانت تستطيع دويلة غرناطة الصغيرة أن تهيئه لها ولأصحابها من ظروف ملائمة للانتعاش، بسبب ما كانت فيه من كفاح دائم مع النصارى.

❁❁❁❁

وبعد سقوط غرناطة، يتجلى لنا شقاء الموريسكيين الاجتماعي فيما خلفوه لنا من أدب قليل فقير، لا يحمل من العربية إلا أحرف هجائها: إذ إنهم جهلوا العربية، ولم يعودوا يعرفون غير الإسبانية، فكتبوا بها ما عنَّ لهم تدوينه، وسجلوه بحروف عربية، وهذا ما يعرف بالأدب الخَمْيَادي أي المستعجمي.

ومعظم ما لدينا من هذا الأدب مؤلفات دينية، وكتب خرافات، وكتب في الشرع؛ ولم يخلُ هذا الأدب من شعر مثل «قصيدة يوسف» و«تاريخ نسب الرسول»، ولكن أهم عناصره كانت الأساطير والقصص، مترجمة أو مقتبسة منة أصول عربية. وكان هذا من غير شك هو السبيل الذي انتقلت به إلى إسبانيا النصرانية ثروة قصصية شرقية كبرى، نرى أوضح نماذجها في قصص ألف ليلة.

❁❁❁❁

وقد بلغ من صدق الأدب الإسباني العربي الباهر أن تأثيره لم يقف عند الحدود السياسية لدولة الإسلام في الأندلس، ولهذا لم يقتصر على المسلمين وحدهم، بل كان له أثر بعيد عند المستعربين واليهود.

فلم تكد أسس الدراسات التلمودية تستقر في الأندلس - بفضل ذلك الجهد الوافر الذي بذله حسداي بن شبروط (٩٤٥/٣٣٤ - ٩٧٠/٣٦٠) - حتى أخذ الشعر العبري الحديث يظهر إلى الوجود ويفصح عن نفسه مقلِّدًا لنماذج من الشعر العربي، وحتى نجد أوائل كتب النحو العبري الرئيسية تظهر مكتوبة بالعربية (كما نجد في مؤلفات أبي زكريا حيوج)، ونجد كذلك ابن جبيرول، أول فيلسوف يهودي، يؤلف كتابه المسمى «ينبوع الحياة» بالعربية ويقتبس مادته من أصل عربي، بل إننا نجد أنه كان يقلد شعراء العرب فيما نظم من الشعر.

وبلُغة العرب كذلك كتب يحيا بن فاقوذا رسالته في الأخلاق والتصوف

المسماة «الهداية إلى فرائض القلوب». وبها ألف أبو عمر يوسف بن صِدِّيق، وكتب يهودا بن ليفي كتابه المسمى «الخزري»، واستعملها إبراهيم بن داود الطليطلي، وإبراهيم بن عزرا[٣٥]، وموسى بن ميمون؛ بل إن الأفكار التي تدور حولها كتابات هؤلاء كلها عربية. وظل اليهود - بعد زوال سلطان العرب عن البلاد بزمان طويل - يتدارسون الكتب العربية، ويترجمونها إلى العبرية في همة يتجلى فيها إعزازهم العميق لها، فاستطاعوا بذلك الجهد أن يحتفظوا لنا في أحيان كثيرة بترجمات عبرية للكثير مما ضاعت أصوله من آثار الأندلسيين. بل إن أسرًا يهودية - كبني طيبون اللونليين (نسبة إلى لونل Lunel، بلدة بجنوبي فرنسا) - كرست جهودها كلها لذلك العمل المحمود، ألا وهو إذاعة الكتب العربية بين الناس.

❁❁❁❁

وكان للأدب العربي الأندلسي في النصارى نفس الأثر الذي كان له في اليهود، إذ كان أولئك النصارى جيرانًا للمسلمين الأندلسيين ربطتهم بهم الأسباب المتصلة زمانًا بعد زمان، ولم تقتصر علاقتهما على الحرب بل قامت بينهما صلات سلمية أيضًا. وعن طريق هذه العلاقات عرف نصارى الشمال ما كان للمسلمين في الجنوب من نظم سياسية وإدارية ودينية وتجارية، وتنبهوا إلى قدرها، وكان من الطبيعي أن يميلوا إلى النسج على منوالها.

وعندما كتب للنصارى التوفيق في حربهم الطويلة مع المسلمين - التي يسميها كتابهم بحرب الاسترداد La Reconquista - وتمكنوا من احتلال طليطلة عام ٤٧٨ /١٠٨٥ وتقرير مصير الجزيرة بذلك، أخذ ملوك قشتالة يعملون على رفع مستوى الثقافة بين شعبهم بنقل كنوز الثقافة الإسلامية إلى لغاتهم؛ ومن ثم ظهرت في طليطلة «مدرسة المترجمين» المشهورة، التي نقلت العلوم الإغريقية وما أضافه العرب إليها من شروح وتعليقات إلى المدارس الأوروبية، وقد كان دافع النصارى إلى

تدارس كتب العرب في بعض الأحيان هو الدفاع عن النصرانية، أي الرغبة في تعرف آراء خصومهم من المسلمين؛ لكي يستطيعوا مجادلتها وإظهار فضل عقيدتهم عليها. ومن هذا الفريق من النصارى - الذين اهتموا بدراسة لغة العرب وعلومهم - رايموندو مارتين، ورايموندو لوليو، والقديس بدرو بشكوال، وغيرهم كثيرون من المتصدين للذود عن المسيحية من كتاب الإسبان. وفي أحيان أخرى، نجد أثر العرب عند كتاب النصارى أعمق وأوسع مدى: فنجد في كتاباتهم طابع الفكر العربي وروحه، دون أن نستطيع أن نتعرف أسلوبهم في المحاكاة على نحو واضح ملموس. ومن هذا الطراز دانتي اللجييري الذي انتفع انتفاعًا عظيمًا بالأساطير الإسلامية المتعلقة بقيام الساعة وأوصاف الدار الأخرى في إنشاء الكوميديا الإلهية الخالدة.

وبلغ الاهتمام بدراسة علوم العرب - من فلك ورياضيات وطب - أوجَه في إسبانيا النصرانية في عهد ألفونسو العاشر، فترجموا «القرآن» و«التلمود» و«القَبّالة»، وتداولت أيديهم كتبًا عربية في الحكم والألغاز نقل أصحابها فيها حشدًا من آراء فلاسفة العرب ومفكريهم، (كما نجد في كتابي بونيوم وبوريدات).

ونُقلت عن العربية كتب في الألعاب - كالشطرنج - واستعملت الموسيقى الأندلسية في صياغة الأغاني الإسبانية المعروفة بالكَنْتِجات، وذاعت بينهم ترجمات لكتب عربية مشرقية في الحكمة (مثل كليلة ودمنة)، والقصص (مثل سندباد)عرفها الناس عن طريق صورها العربية، وأنشئت مدرسة الدراسات العليا في مرسية ثم أخرى في إشبيلية، واجتمع في هاتين المدرستين أعلام العلماء من المسلمين والنصارى واليهود؛ وكان يشرف على هذا العمل الضخم ذلك الملك الذي استحق من التاريخ لقب «السّابِيُو»، أي العالم.

وانتشرت الأساطير والقصص الشرقية على عجل: فتجد إلى جانب «ألف ليلة

وليلة» و«السندباد» كتاب «سلوك رجال الدين» Disciplina Clericalis لبدرو ألفونسو Pedro Alfonso، وصورًا مختلفة لقصة بوذا (نجد نموذجًا منها في برلعام ويوسافات)، وكلها انتشرت وذاعت في أوروبا عن طريق ترجماتها العربية. وإن أسماء مثل خوَانْ مَانْوِيل، و(رايموندو) لوليو، وتورميدا، لتشهد بأجلى بيان على ما ساهم به العرب في تكوين القصص الإسباني.

ويكاد يكون من المحقق أن مجموعة حكايات ألف ليلة وليلة العربية قد أخذت سبيلها إلى الغرب عن طريق إسبانيا، بدليل ما كان متداولاً منها بين مسلمي الأندلس، وما أخذه نصاراهم عنهم منها. وكانت هناك كذلك قصص عربية فياضة بالحيوية كقصة «حي بن يقظان» لابن طفيل، التي تعتبر نموذجًا للقصة الفلسفية، وكالفصول الأولى من كتاب «الكريتيكون» لبالتازر جراثيان.

ومن الثابت أن المسلمين الأندلسيين تداولوا قَصَصًا ذا طابع غنائي ضاع كله، فكانت لهم أغنيات وأساطير لها أثر ملحوظ في نشأة شعر الملاحم الإسباني والفرنسي، بدليل ما نجد من شواهد على وجود ذلك القصص الأندلسي في بعض كتب التاريخ العربية ككتاب «افتتاح الأندلس» لابن القوطية. وقد كشف ريبيرا هذا القصص وانتهى إلى هذه الحقائق كلها، وأذاعها.

وكذلك صيغت كل الأشعار الغنائية - التي نجدها في اللغات الرومانية في العصور الوسطى - في أوزان وبحور مشتقة من أوزان فن شعري ابتكره الأندلسي مُقَدَّم القَبْرِي في القرن العاشر الميلادي، وهو فن الزجل والموشحة الذي انتقل مع الموسيقى الأندلسية ذات الأصل الشرقي إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا، وطال بقاؤه في إسبانيا بعد انقضاء عصور المسلمين؛ حتى لنجد نماذج منه في مطالع القرن السابع عشر[٣٦].